

إفرايم هاليفي*

لماذا وكيف وُضعت خطة

استحداث منصب رئيس الحكومة الفلسطينية؟*

أذن إطلاق هجوم الجيش الإسرائيلي، الذي سُمي "الدرع الواقية"، في آذار/مارس 2002، في نشوء حقبة جديدة، لا في عقيدة الحرب منخفضة الشدة وتنفيذها فحسب، بل أيضاً في اتباع المجتمع الدولي نهجاً جديداً تماماً في مواجهة التحدي الذي يشكله التعامل مع الأنظمة الفاشلة. وفي هذا الشأن، أعتقد أن من الصواب القول إن السياسة المبتكرة التي اقترحتها الجانب الإسرائيلي على المستوى السياسي كانت "سابقة" تمت محاكاتها في أزمات لاحقة كجزء لا يتجزأ من السياسات الأميركية.

عندما أُطلق الهجوم على مراكز الإرهاب الفلسطيني في الضفة الغربية، اتضح منذ البداية أن العملية ستكون محدودة زمنياً. فلا يمكن أن يُحدد مسبقاً وبصورة واضحة مقدار تسامح الرأي العام الدولي، والاعتبارات السياسية الدولية، مع قيام إسرائيل بعمل عسكري في أراضي السلطة الفلسطينية من دون أن تخشى عرقلة دولية. وقد طلب رئيس هيئة أركان الجيش الإسرائيلي في ذلك الوقت، الجنرال شأؤول موفان، شهرين من حرية التصرف على الأقل، لكن بدا من الواضح أنه لن يمنح هذا الإطار الزمني، وأنه بصرف النظر عن سرعة العملية الوشيكة ومدى نجاحها فإنها ستنتهي من دون تحقيق الهدف البعيد المدى، ألا وهو الاستئصال التام للإرهاب. فما هو التأثير الطويل الأمد الذي ستحدثه العملية إذا أطل الإرهاب برأسه الشنيع ثانية فور نهاية الأعمال العدائية أو بعد ذلك بقليل؟ ألن ينجم عنها نتائج عكسية من حيث أنها ستبرز العجز بدلاً من مواطن القوة في النظام الدفاعي والأمني الإسرائيلي؟ وإذا انتهت العملية في يوم محدد من دون أن يتم تحقيق شيء، من الناحية الدفاعية أو السياسة، فمن الممكن أن يستدعي الفراغ كل أنواع المبادرات التي يمكن أن تكون كارثية من وجهة النظر الإسرائيلية. ومن هنا كان لا بد، من كل الزوايا، من أخذ زمام المبادرة والتوصل إلى سياسة يتم إطلاقها في أعقاب العملية الدفاعية. وكان يجب ألا يكون التفكير المفصل في هذا الأمر من اختصاص مسؤول الاستخبارات أو أجهزة الاستخبارات، لكننا نهضنا بهذا الأمر بسبب الفراغ في عملية اتخاذ القرار [...].

نظراً إلى الإدراك السائد أن ياسر عرفات غير مهتم بأي وفاق مع إسرائيل، فإن الإمكان الوحيد كان يكمن في الدفع نحو قيادة بديلة للسلطة الفلسطينية. وكما يتحقق مثل هذا التغيير، كان لا بد من أن يُنشأ مركز قوة جديد داخل النظام البرلماني الفلسطيني، وأن يعمل المجلس التشريعي الفلسطيني على استحداث منصب رئيس الحكومة الذي لم يكن موجوداً وقتئذٍ، وتزويده بصلاحيات تجعله الرئيس "التنفيذي" للسلطة. وكانت هذه أول مرة يطرح فيها اقتراح إحداث تغيير في النظام في الشرق الأوسط على المجتمع الدولي. وكان لا بد من أن تؤخذ في الحسبان الأوضاع السائدة داخل السلطة، ولا سيما الموقع الرئيسي الذي كان يشغله عرفات والدعم الشعبي العارم الذي كان يحظى به. لذا بدلاً من إزاحته عن المسرح تماماً، كانت الفكرة تقضي باحتفاظه بلقب الرئيس، مع نقل صلاحياته بطريقة تجعله رئيساً اسماً للدولة على غرار ملكة إنكلترا، كما يقول المتكلمون.

وقد وُضع مخطط شديد التفصيل وقدم إلى رئيس الحكومة: أولاً، يُعيّن رئيس للحكومة يتمتع بصلاحيات؛ ثانياً، على الفلسطينيين إعادة تنظيم أجهزتهم الأمنية وخفضها إلى ثلاثة بدلاً مما يقارب ثلاثة عشر، ويكون كل منها على حدة مسؤولاً أمام الرئيس. كما يجب إعادة النظر في النظام المالي للسلطة الفلسطينية ووضعه تحت مسؤولية وزير للمالية خاضع لسلطة رئيس الحكومة. وعندما تتم هذه الأمور كلها، نعرف عندئذٍ أنه سينشأ شريك ذو صدقية للعمل والتفاوض، وأن هذا الشريك سيتمكن من حكم دولة فلسطينية مستقلة تعمل إلى جانب إسرائيل ضمن حدود مؤقتة. وعندما يتم ذلك، توجّل المفاوضات بشأن الوضع الدائم إلى أجل غير محدد.

هذه هي الأفكار الرئيسية التي طرحت على رئيس الحكومة بينما كانت المعارك لا تزال مستعرة في الضفة الغربية. وكانت تلك، على ما أعرف وأذكر، أول مرة تطرح فيها سياسة "تغيير الأنظمة" على طاولة البحث الدولية. ولا شك في أنها أول مرة يقترح فيها رئيس الاستخبارات مثل هذا المفهوم على المستوى السياسي في إسرائيل. وبعد مداولات مفصلة مع رئيس الحكومة ومجموعة منتقاة من مساعديه الشخصيين والسياسيين، أقر المفهوم والمخطط التفصيلي. وفي مدة لا تزيد على عشرة أسابيع، عُرضت الخطة على واشنطن ولندن والقاهرة وعمّان وغيرها من العواصم الرئيسية في المنطقة وخارجها. وتم تلقفها واعتمادها بحماسة كبيرة، الأمر الذي أدهش كثيرين داخل

إسرائيل وخارجها. وفي أثناء جولتنا على عواصم العالم، شعرت أنا والجنرال كابلنسكي، السكرتير العسكري لرئيس الحكومة، بأننا نصنع التاريخ. شعرنا بأننا عندما أخذنا زمام المبادرة وملأنا الفراغ السياسي قبل أن ينازعا أحد بشأن ذلك، وبعدها عرضنا مجموعة من الافتراضات والاقتراحات التي تقتضي تنازلت مؤلمة لكن معقولة من الجانبين، لم يكن العالم مستعداً للاستماع فحسب، بل أيضاً لاعتماد الأفكار كأنها أفكاره.

عندما أصبح البيت الأبيض في واشنطن جاهزاً لإطلاق مبادرته الخاصة كنا متلهفين جداً لمعرفة مقدار النجاح الذي حققناه. وفي الساعة 3:47 بعد ظهر اليوم الواقع فيه 24 حزيران/يونيو، ظهر الرئيس [الأميركي] في حديقة الزهور وأعلن ما سماه: "دعوة إلى قيادة فلسطينية جديدة". قال العنوان كل شيء، وكان ما تبقى تسلسلاً منطقياً لهذا المنطلق. لا أذكر مثلاً آخر قدم فيه جهاز استخبارات مساهمة مؤثرة كهذه في رسم الاتجاهات الاستراتيجية في المنطقة. وتدقق الدعم لخطة الرئيس من داخل المنطقة وخارجها على السواء. بل إن دولاً مثل مصر، من جهة، وروسيا، من جهة أخرى، ساندت التحرك الجديد على الأرض، على الرغم من استمرارها في تأييد شرعية الرئيس عرفات بالقول لا بالفعل، وشجعت العناصر الأكثر اعتدالاً في المعسكر الفلسطيني على اغتنام الفرصة.

كانت المبادرة التي عرضتها للتو مختلفة نوعاً ما عن المبادرات الأخرى المتعلقة بالقضايا الأمنية بالدرجة الأولى، لكنها ذات عواقب سياسية. لقد كان لهذه المبادرات، مثل الضغط الذي مارسته الهيئة الأمنية الإسرائيلية لبناء جدار أمني على امتداد الحدود الإسرائيلية، تأثير مباشر في رسم الحدود النهائية لإسرائيل، لكن منطلقاتها الأصلية كانت تقع بأكملها في المجال الأمني.

في المقابل، كان مخططي التفصيلي لتشكيل قيادة فلسطينية جديدة، منذ البداية، محاولة مباشرة لإحداث تغيير في النظام يشمل شخصية فاعلة رئيسية وخصماً رئيسياً لإسرائيل، وكانت من حيث الجوهر أكثر طموحاً بكثير وأكثر تدخلًا بكثير في معسكر خصومنا الرئيسيين. عندما أرجع بذاكرتي إلى تلك الأيام لا يمكنني تجنب أن أتذكر أنه لم يحدث نقاش بشأن المبدأ الذي ينطوي عليه اتباع تلك السياسة. لم يسأل أحد إذا كان من المشروع لنا أن نتبنى علناً خطوات وسياسات من هذا النوع. فذلك لم يكن مسعى سرياً للتأثير، وإنما حملة صريحة مصممة لكسب التأييد العام وليس مجرد إقرار للمفهوم: كان لائحة فعلية دقيقة للتدابير المصممة للحصول على نتيجة.

دهشت في الواقع من السهولة النسبية التي ميزت التسلسل الكامل الذي أثمر موافقة على الانطلاق ومحاولة التوصل إلى الهدف. كنت مهدت للعرض الذي قدمته لرئيس الحكومة بسلسلة من المناقشات الداخلية مع خبراء الذين عملوا على الجانب التحليلي لهذا الأمر. كان من الصعب في البداية أن يدركوا ما الذي أطلبه منهم. فهم لم يمارسوا أدوار اتخاذ القرار من قبل. وفي العديد من المناسبات طلبت منهم العمل على تقديم خيارات عملانية في حقل الاستخبارات، لكن لم يسبق أن طلبت منهم إبداء آرائهم بشأن مخططات تفصيلية لأعمال سياسية تتعلق بالقضايا الإقليمية الرئيسية. وتبين فيما بعد أن ذلك كان مثيراً جداً ومجزيماً لكل المشاركين فيه، وقد كوفئت بتعليقات ومعلومات طمأنتني إلى أنني على الطريق الصحيح. وهكذا عندما ذهبت إلى رئيس الحكومة، كنت أشعر بثقة كبيرة، كما أذكر جيداً، وتمكنت من تقديم عرض مقنع جداً لقي كثيراً من الترحيب. واتفق أيضاً أنني بينما كنت أضع اللمسات الأخيرة على اقتراحاتي، توصل الجنرال غيورا أيلند رئيس فرع التخطيط في قيادة الجيش الإسرائيلي، وفريقه، إلى استنتاجات مماثلة. واستدعي كل منا على حدة إلى تناول الفطور في المقر الرسمي لرئيس الحكومة أريئيل شارون. وتناول كل منا وجبة طعام فاخرة، وقدم عرضاً مستقلاً بغياب الآخر. وقد تناول رئيس الحكومة في ذلك الصباح فطورين كاملين. وتبين أن المضيف استمتع بفطوره الثاني كثيراً. وبعد ذلك، في اليوم التالي، استدعينا معاً لتمضية نصف يوم في مزرعة رئيس الحكومة في جنوب البلد. وهناك التقينا مساعدين إضافيين، ووضعنا خلال عدة ساعات، تحت أنظار رئيس الحكومة، مشروع الوثيقة النهائية، ولائحة بنقاط تشمل المفهوم وخطة العمل. وشكلت مسودتي أساس المنتج النهائي، وكنت فخوراً بذلك. وطلب رئيس الحكومة أن تترك الورقة معه في عطلة نهاية الأسبوع، وفهمت أنه سيتشاور مع "الحلقة الداخلية" التي لا أعرف تكوينها، وقال أنه سيبلغني رأيه في بداية الأسبوع التالي.

لم يلزم أكثر من ثلاثة أيام للحصول على الموافقة. وكان عدد الأشخاص الذين اطلعوا على الخطة في المستوى المهني في حده الأدنى. ولم أعرف قط عدد الذين اطلعوا عليها في المستوى السياسي، كما لم أعرف من هم. وبقي ما جرى البحث فيه في ذلك المستوى، والاعتبارات التي أيدت المضي قدماً في الموضوع، بعيداً عما فكرت فيه شخصياً، غامضة بالنسبة إليّ. وهكذا، خلال أقل من أسبوع، عرضت خطوة ذات شأن سياسي خطر وأقرت، ووضعت موضع التنفيذ. وفي هذه الحالة بالذات، ونتيجة الطريقة التي تعاملت بها مع المسألة، أخضع الخبراء الخطة

بأكملها لفحص شامل وحُلّت تحليلاً مفصلاً. وكان انطباعي المميز أن الأمر لن يكون كذلك في مرحلة لاحقة، ولم تتأخر النتائج في الظهور.▪

(*) سابقاً رئيس الموساد ورئيس مجلس الأمن القومي.

(**) المصدر: جزء من فصل في كتاب:

Efraim Halevy, *Man in the Shadows* (London: Weidenfeld and Nicolson, 2006), pp. 211-215.

ترجمة: عمر الأيوبي.

مجلة الدراسات الفلسطينية، جميع حقوق النشر وإعادة التوزيع محفوظة لمجلة الدراسات الفلسطينية، ولا يمكن نشرها أو توزيعها إلكترونياً إلا بإذن من رئيس تحرير المجلة وذلك عبر الكتابة إلى العنوان البريدي التالي: majallat@palestine-studies.org
يمكن تحميل هذه المقالة أو طبعتها للاستخدام الفردي وعند الاستخدام يرجى ذكر المصدر:
http://www.palestine-studies.org/ar_index.aspx